بابلو نيرودا:
عارية، زرقاء، كليلة في كوبا

«الشعر هو دوماً فعل سلم. يولد الشاعر من السلام كما يولد الخبز من الدقيق».

هكذا يقول بابلو نيرودا، في مذكراته التي تعد واحدة من روائع ما كتب من مذكرات عبر العصور.

ترك هذا الشاعر العظيم، بروحه المفعمة بحب الحياة والإنسان، وبموهبته النادرة المثقفة، بصمات حارّة على حركة الشعر في العالم، وعلى الرؤية الإنسانية الشاملة لمفهوم الشعر وأهميته. وعبر أعماله العديدة التي تقلبت بين شعر ونثر، وتلونت بين غموض موحٍ ووضوح مثير، استطاع مزج الحسّي المباشر والمعاش بالمخفيّ والمكنون، ومزاوجة الفعل بالحلم، بنَفَسٍ تردّدَ بين الغنائي والملحمي، مستلهماً جمالياته من تأمل الوجود الطبيعي والوجود البشري، بكل ما ينطوي عليه هذان من أسرار وعذابات.

ولقد ألهبت الحياة الصاخبة، المليئة بالأحداث والتجارب التي عاشها الشاعر، أحاسيسه، ووسمت شعره بهذا العنفوان المندفع بشهواته، والذي نلمسه (بل ونشمّه ونذوقه..) في مجمل قصائده وكتاباته.

ولنصغ إليه متحدثاً عن رؤيته لماهيته كشاعر: «على الشاعر أن لا يكرر نفسه، فهو منتدب لأمر جلل: النفاذ إلى الحياة وجعلها نبوية. على الشاعر أن يكون كائناً أسطورياً. وما هو الشعر إن لم يساعد على الأحلام!».

القصائد المترجمة هنا هي من مجموعة «مائة سونيتة حب» التي كتبها عام ١٩٥٧ وأهداها لحبيبته وزوجته ماتيلدا، ملتزماً في كتابتها نظام السونيتة الشعري الكلاسيكي، مع بعض التصرف، حفاظاً على روح الدفقة الشعرية. وتعد هذه السونيتات من عيون شعر الحب في اللغات كافة.

ولا بد من الإشارة هنا الى أن ترجمة لهذه السونيتات كانت قد صدرت في مطلع السبعينيات من القرن المنصرم، عن دار نشر لبنانية، تحت عنوان «مائة قصيدة حب» وبتوقيع محمد عيتاني. غير أنها ترجمة تشكو، لكل من اطلع عليها، من عدم قدرتها على القبض على روح النص الأصلي، ومن فقدانها لروح الشعر في اللغة المنقول إليها، إضافة الى تصرف المترجم بعدد وانتظام أسطر السونيتة، وتحويره لكثير من الصور الشعرية، سهواً

في بعض الأحيان، وعمداً في أحيان أخرى.

الأمر الذي حفزني، أنا المعجب بهذه السونيتات منذ زمن، إلى ترجمتها ترجمة كاملة، مراعياً قدر استطاعتي خصوصية جمالية النص في شكله-السونيتة-ومحافظاً، جهدي، على حرارة شعرية صوره وانفعالاته، بانديا حاتها وظلالها.

وقد اعتمدت في ترجمتي على الترجمة الانكليزية التي حققها Stephen Tapscott والصادرة عن جامعة تكساس في طبعتها الثامنة عام ١٩٩٦(المترجم).

ما أمسكتُ لَيْلَكِ، أو هوا ءَكِ، أو فَجْرَكِ،
ترابك فحسب، الحقيقة الثمرّية في قطوفها ،
التفاحات التي تفاخر أنها تشرب عذبَ الما ء،
الصلصال والراتنج من أرضك حلوة العبق.

من كونيكمالي حيث تفتحت عيناك
إلى فرونتيرا حيث صُنعتْ قدماك من أجلي،
أنت صلصالي الداكن المألوف:
وحين أمسكُ وركيك، فإنني أمسكُ بالقمح في حقوله.

يا امرأة من أراكو، لعلك لا تدركين
كيف أني، من قبل أن عرفتك، نسيت قبلاتك.
لكن قلبي مضى مستذكراً فمك-وأنا مضيت

ومضيت قاطعاً الطرقات كرجل جريح،
حتى أدركت، يا حبي، أن مكاني
أجده في أرض القبلات والبراكين.

تائهاً في الغابة، اقتطعت غصناً قاتماً
وأدنيت حفيفه من شفتيّ الظامئتين:
ربما كان صوت مطر يبكي،
أو جرسٍ مشقّق، أو قلب ممزّق.

ثمة شيء آتٍ من البعيد: بدا لي
عميقاً مستسرّاً ، متوارياً بالتراب،

صرخة مكتومة بفصول خريف هائلة،
بأوراق نديّة داكنة نصف مفتوحة.

مستيقظاً من غابته الحالمة هناك، عسلوج شجرة البندق
غنّى تحت لساني، دافقاً أريجه
ليتصعّد إلى عقلي الواعي

كما لو كانت الجذور التي خلّفتها ورائي
تندهني، وكذلك الأرض التي أضعتها في طفولتي-
ثم إني توقفت، مجروحاً بالعطر الجوّال.

امرأة مكتملة، تفاحة لاحمة، قمر شهواني،
رائحة عشب بحري زخمة، طين وضوء في حفلة مساخر،
أي وضوح سرّي يتكشف بين عموديك؟
أي ليل غابر يلمسه المرء بحواسّه؟

آه، الحب ارتحال في الماء والنجوم،
في الهواء الغريق وعواصف الطحين؛
الحب صليل بروق،
جسدان مقهوران بعسل واحد.

قبلةً قبلةً أرتاد أبديتك الصغيرة،
تخومك، أنهارك، قراك المملمة،
فيما نار أعضائك الحميمة-المتحولة، اللذيذة-

تزلق عبر مسارب الدم الضيقة
إلى أن تنصبّ، عجلى، مثل قرنفلة ليلية، وتكون:
ولا يبقى، في العتمة، غير ومضة ضوء.

نحتّ فمك، نحتّ صوتك، وشعرك.
صامتاً جائعاً أجوس عبر الطرقات.
الخبز لا يسدّ جوعي، الفجر يمزقني، أقضي نهاري

متتبعاً وقع خطاك المسائية.

أجوع إلى ضحكتك الملساء،
إلى يديك اللتين بلون غلالٍ شرسة،
أجوع إلى الشحوب الحجريّ لأظافرك،
أودّ لو آكل جلدك مثل لوزة ناضجة.

أود لو آكل شعاع الشمس المتوهج في جسدك البديع،
لو آكل أنفك الملوكي في وجهك المتكبّر،
أود لو آكل الظل المتلاشي على رموشك،

وها أنا أتسكع جائعاً، أتشمم الشفق،
مفتشاً عنك، عن قلبك الحارّ،
مثل كوجر في أراضي كويتراتو القاحلة.

عرفتك الأرضُ منذ أزل بعيد،
مكتنزة كما الخبز، كما الخشب،
أنت قوامٌ مُعَنْقَدٌ من اللبابات الصرفة؛
لك وقار الأكاسيا، وثقل الخضار الذهبية.

أعرف بوجودك، ليس فقط لأن عينيك تحلقان مفتوحتين وتذرذران ضوءهما على الأشياء، مثل نافذة مشرعة–ولكن أيضاً لأنك اتخذت هيئة الصلصال، وشُويت في تشيلان، في فرنٍ ذاهل من الطابوق.

الكائنات كالهواء تتبدد، كالماء، كالبْرد.
ملتبسة هي، تلاشيها أدنى لمسة من الزمن،
كما لو تفتتت غباراً من قبل أن تموت.

ولكننا، أنت وأنا، مثل صخرة سنسقط في القبر:
شكراً لحبنا الذي لن يضيع هباء أبداً،
فالأرض به ستواصل الحياة.

أنا لا أحبك كما لو كنت وردة ملح، أو حجر توباز،
أو سهماً من القرنفل أطلقته النار.
أحبك كما تُحَبُّ سرّاً تلك الأشياء الغامضة
الممتدة بين الظلال والروح.

أحبك كتلك النبتة التي ما أزهرت قط
ولكنها تحمل في داخلها ضوء أزهارها المحتجبة.
شكراً لما يفوح به حبك من عبق صُلب
يصّاعد من الأرض، ويحيا غامقاً في جسدي.

أحبك من دون أن أدري كيف، أو متى، أو من أين.
أحبك هكذا مباشرة، بلا تعقيدات أو كبرياء؛
وأحبك لأني لا أعرف أسلوباً آخر

غير هذا: حيثما لا يوجد أنا، أو أنت،
كأن يدك التي على صدري هي يدي،
كأن عينيك تغمضان حينما أسقط في النوم.

حبيبتي القبيحة، أنت كستناءة شعثاء.
حسنائي، أنت جميلة كالريح.
قبيحة، فمك كبير، يكفي ليكون اثنين.
جميلة، قبلاتك منعشة مثل بطيخة طازجة.

قبيحة، أين ترى تخفين نهديك؟
هزيلان هما، مثل ملعقتي قمح صغيرتين.
لَيَروق لي أكثر أن أرى قمرين على صدرك
أو برجين ضخمين فخورين.

قبيحة، حتى البحر لا يحوي أشياء مثل أظافر قدميك.
جميلة، زهرةً زهرةً، نجمةً نجمةً، موجةً موجةً،
هكذا، يا حبيبتي، أفصل مفاتن جسدك.

قبيحتي، أحبك من أجل خصرك الذهبي،
جميلتي، أحبك من أجل تغضنات جبينك.
حبيبتي، أحبك من أجل وضوحك، من أجل غموضك.

كم مرة أحببتك، يا حبيبتي، من دون أن أراك أو أتذكرك-
من دون أن أتنبّه فألمحك وأعرفك، زهرة جانطيانا
نبتت في غير أرضها، يسعفها قيظ الظهيرة،
وأنا لا تستهويني غير رائحة القمح.

وقد أكون رأيتك، أو تخيلتك ترفعين كأس نبيذ
في أنغول، تحت ضياء قمر صيفي؛
أم تراك كنت خصر ذلك الجيتار الذي دندنت عليه
خفية، فدوّى دويّ بحر هائج؟

أحببتك من دون أن أعرف، وتقصّيت ذكراك.
اقتحمت بيوتاً كي أسرق صورتك،
وأنا السابق في علمي كيف تبدين. وحين بغتةً

كنت هناك ولمستك، توقفت حياتي:
كنت أمامي بكامل هيمنتك وسلطانك مثل ملكة:
مثل حريق يبتلع الغابات، واللهب طوع بنانك.

عارية، بسيطة أنت كإحدى يديك،
ملساء، أرضية، صغيرة، شفافة، ملتمّة:
لديك خطوطُ قمَرٍ، ومَمَرَّاتُ تُفَّاح:
عارية، نحيلة أنتِ مثل حبة قمح عارية.

عارية، زرقاء أنت مثل ليلة في كوبا؛
لديك كروم ونجوم في شعرك؛
عارية، رحبة أنت وصفراء
مثل صيف في كنيسة ذهبية.

عارية، صغيرة أنت كبعض أظافرك-
مقوسة، مصقولة، وردية، إلى أن يولد النهار
وتنسحبي إلى العالم السفلي.

كما لو أسفل قناة طويلة من الثياب والأعمال اليومية:
يخفت نورك الباهر، يرتدي ملابسه-يسقط أوراقه-ويعود يداً عارية من جديد.

لك شَعر في كثافة أشجار الصنوبر في الأرخبيل،
وجلد عملتْ دهور الزمان على صنعه،
أوردة عرفتْ بحاراً من شجر الغابات،
ودمٌ معشوشبٌ قطّرته السماء في الذاكرة.

لا أحد سيستعيد قلبي المفقود
من بين كل تلك الجذور، من وهج الشمس النضر المرير
المتناسل على صفحة الماء.
هناك يعيش الظل الذي لا يتبعني.

من أجل هذا طلعت أنت من الجنوب كجزيرة
محتشدة ومتوّجة بالريش والأشجار:
ولقد شممتُ أريج تلك الغابات المتدافعة،

والتقطت العسل الأسود الذي وجدته في الأحراج؛
على وركيك لمستُ البتلات المبهمة
تلك التي ولدت معي، تلك التي شكّلت روحي.

طارت يدك من عينيّ إلى النهار.
تقدم الضوء وتفتّح مثل حديقة ورد.
الرمل والسماء خفقا مثل خلية نحلٍ
قصوى، منحوتة في الفيروز.

مَسّت يدُك مقاطع كلمات رنّت كالأجراس،
مَسَّتْ كؤوساً، وبراميل طافحة بزيت أصفر؛

بتلات أزهار، ينابيع، وفوقَ كل ذلك، مسّت الحب،
الحب: يدُك النقية، حارسةً مغارف الطعام.

المساء انقضى. والليل دسّ، خفيةً،
أغشيته السماوية إلى رقاد الرجل،
وأطلقت شجيرة الرحيق رائحتها الحزينة الوحشية.

ثم إن يدك رفرفت، وطارت عائدة من جديد
ضمت جناحيها، وريشها الذي حسبته ضائعاً
فوق عينيّ اللتين ابتلعتهما العتمة.

لبيتك صوت قطارٍ يعبر الظهيرة،
نحلٌ يطن، قدور تصدح،
الشلال يفهرس أعمال الرذاذ الخفيف،
ضحكتك تغزل تهدّجها شجرةً نخيل.

مثل فتى قروي يصل ببرقية مغرّدة،
ضوء الجدار الأزرق يحدث الحجارة، وهناك-
متسلقاً التلة، عابراً بين شجرتي التين بصوتهما الأخضر-
يأتي هوميروس منتعلاً خفّيه الكتومين.

لا صوت للمدينة هنا، لا فم، لا شيء
بالغ الفظاظة، لا سونيتات، لا صرخات أو زعيق سيارات،
هنا انتظام ساكن فحسب للشلالات والسباع

وهنا أنت-تنهضين، تغنين، تركضين، تمشين، تنحنين، تزرعين، تخيطين، تطهين، تدفّين، تكتبين،
تعودين-أم تراك رحلت بعيداً؟- (سأعلم عندئذ أن الشتاء قد حلّ).

تقصيت لمحة منك بين الأخريات جميعاً،
في نهر النساء المتموّج الدافق،
في الجدائل، في العيون المغضية خفراً،
في الخطوة الرشيقة التي تزلق، مبحرة في الزبد.

ويخطر لي، بغتة، أن بإمكاني وصف أظافرك-
المستطيلة، الذكية، بنات أخت الكرز-:
ثم ها هو شعرك يعبر، ويخطر لي
أنني أراك في صورة نارٍ عظيمة، تشتعل في الماء.

بحثت، ولكن ما من واحدة لها إيقاعك،
لها ألقك، النهار الظليل الذي جئت به من الغابة؟
ما من واحدة لها أذناك المنمنمتان.

تامّة أنت-متقنة-وكل ما فيك فريد
وهكذا أمضي، معك أراني أطوف، في هوى
المسيسيبي الرحب، باتجاه بحر أنثوي.

كوتابوس يقول إن ضحكتك تهوي
هُويَّ نسرٍ من برجه الحجري. وهذا حق،
يا ابنة السماء، أنت تشرخين العالم
وأوراقه الخضراء، بصاعقة واحدة من وميضك:

تنقضّ، وتُرعِدُ ألسنة الندى،
ومياه الماس، والضياء بنحله المتواثب.
وهناك حيث عاش الصمت ذو اللحية المستفيضة،
قنابل ضوء صغيرة تنفجر، فتكون الشمس والنجوم،

وتتنزّل السماء بليلها الأليل الكثيف،
تتوامض الأجراس وأزهار القرنفل في نور البدر،
وتخبّ خيول صانعي الأسرجة.

لأنك صغيرة ملمومة، دعيها تشقّ،
دعي شهاب ضحكتك يطير:
كهربي الأسماء العادية للأشياء!

تذكرني ضحكتك بشجرة
مصدوعة بضربة برق، بمكيدة فضية
تسقط من السماء، تغلق الذؤابة
وبسيفها تشطّر الشجرة.

ضحكة كضحكتك التي أحب، تلدها
أوراق النباتات فحسب، وثلوج الأراضي العالية،
ضحكة الهواء التي تنفجر حرّة على تلك الذرى،
أيتها الأعز، يا إرثاً أروكانياً.

يا امرأتي الجبلية، يا بركاني الصافي من تشيلان،
اشطري بضحكتك الظلال،
اشطري الضياء والصباح وعسل القمر:

العصافير بين الأوراق سوف تتقافز في الهواء
حين تخترق ضحكتك، مثل ضوء متهوّر،
شجرة الحياة.

تغنين، يقشّر صوتك أغلفة حبوب
النهار، تغنين مع الشمس والسماء،
أشجار الصنوبر تنطق بألسنتها الخضراء،
وطيور الشتاء تطلق صفيرها.

يملأ البحر قبوه بوقع الخطى،
بالأجراس، بالسلاسل، بالأنين،
بقرقعة الأدوات المعدنية،
وصرير عجلات العربات.

ولكنني لا أسمع سوى صوتك، صوتك
المحلّق بدقة وأزيز سهم،
والساقط بمهابة مطر.

صوتك يبعثر السيوف العالية
ويعود محملاً بالبنفسج
ويصحبني عبر السماوات.

مخضلّة بمياه آب التمعت الطريق
كما لو اقتُطعت من بدر،
أو كضوء تفاحة كامل
يخترق قلب ثمرة خريفية.

الضباب، الأرض الفضاء، أو السماء، شبكة النهار المبهمة
تنتفخ بأحلام باردة، بضجيج وأسماك،
بخار الجزر يهاجم اليابسة،
والأوقيانوس يرتعد فوق بحر تشيلي.

كل شيء ملتزٌّ كمعدن، تتوارى
أوراق الشجر، ويكتم الشتاء ذراريه،
ونحن، العميَ الوحيدين، وحيدون بلا انتهاء.

عرضة لعبور الحركة الصامت،
للتوديع، للإقلاع، للطريق
وداعاً، سقطت دمعة الطبيعة.

اليوم هو اليوم، بثقل كل الزمن الفائت،
بأجنحة كل ذلك الذي سيصير غداً،
اليوم هو جنوب البحر، عمر الماء القديم،
بنية اليوم الجديد.

بتلات اليوم المنصرم تتجمع على فمك،
مرفوعة إلى الضوء أو إلى القمر،
والأمس يخبّ هابطاً ممرّه المظلم
كي نتمكن من تذكر وجهك الذي مات.

اليوم والأمس والغد تمضي،
مأكولة، مستهلكة في يوم واحد مثل ربلة ساق محترقة؛
فيما ينتظر قطيعنا بأيامه المعدودة.

غير أن الزمن في قلبك نثر طحينه،
وحبي من صلصال تيموكو بَنى لك فرناً:
يا خبز روحي اليومي.

ضمّي، في الليل، قلبك إلى قلبي، ليتسنى لهما معاً،
فيما يرقدان، هزيمة الظلمات
مثل طبل مزدوج في غابة، يقرع
ضد جدار الأوراق المبللة الكثيف.

سَفَرٌ ليليّ، لهب الهجعة الأسود
ذاك الذي يقصّ خيوط عناقيد الأرض،
دقيق دقة مواعيد قطار يسوق في اندفاعه
الظلال والحجارة الباردة، بلا انتهاء.

لأجل هذا يشدني الحب إلى حركته الأنقى،
إلى الثبات النابض في صدرك
بأجنحة بجعة ترفرف تحت الماء.

وكي يتمكن نومنا من الإجابة على كل أسئلة
السماء المليئة بالنجوم، بمفتاح واحد،
بباب وحيد، موصد بالظلال.

حبيبتي، لقد عدت من السفر والأحزان
إلى صوتك، إلى يدك المتطايرة فوق أوتار الجتيار،
إلى النار التي تعترض الخريف بالقبلات،
إلى الليل الدوّار عبر السماوات.

أطالب بالخبز والسيادة للجميع،

أطالب بأرض للعمال الذين بلا مستقبل.
وليُحرم الراحة كل من يترقب دمي أو أغنيتي!
ولكني لن أتخلى عن حبك، إلا بالموت.

اعزفي، إذن، فالس القمر الهادئ،
وأغنية البحارة على جيتارك الذائب،
إلى أن يتدلى رأسي مثقلاً بأحلامه.

لأن أرق حياتي كله قد حاك
هذا الملجأ في البستان حيث تعيش يدك وتطير،
ساهرة على ليل المسافر النائم.

فيما نوصد هذا الباب الليليّ، يا حبيبتي،
تعالي نتجول معاً عبر الأمكنة المتخيّلة.
اغمضي أحلامك، يا حبي، ادخلي عينيّ بسماواتك،
وانتشري في دمي مثل نهر فسيح.

وداعاً لضوء النهار الفظ، الذي نقّط
في كيس خيش الماضي، يوماً بعد يوم.
وداعاً لكل أشعة الساعات أو البرتقالات.
أيها الظل، يا صديقاً يزور غبّاً، أهلاً!

في هذا المركب، أو الماء، أو الموت، أو الحياة الجديدة،
نحن متحدان ثانية، راقدان، منبعثان:
نحن زواج الليل بالدم.

لا علم لي بمن يحيا أو يموت، من ينام أو يصحو،
لكني أعلم أنه قلبك من يوزّع
نعميات الفجر كلها في صدري.

ما أطيب أن أحسّك قربي في الليل، يا حبيبتي،
محجوبة بنومك، ليليّة بمعنى الكلمة،

بينما أنهمك أنا بفكّ ارتباكاتي
مثل شباك متداخلة

غافلاً يمخر قلبك عباب الأحلام،
لكن جسدك يتنفس، متهتكاً،
يبحث عني من دون أن يراني، ويتمّ رقادي،
مثل نبتةٍ تتكاثر في الظلام.

حين تنهضين مفعمة بالحياة، في غد، ستكونين امرأة أخرى:
لكن شيئاً ما يتبقى من تخوم الليلة الضائعة،
وخارج ذلك الوجود واللا شيء سنتلاقى،

شيء ما يشدّ أحدنا إلى الآخر في ضوء الحياة،
كما لو أن ميسم الظلمات
وسَمَ مخلوقاته السرّية بالنار.

أحسب أن الزمن الذي أحببتني فيه
سوف ينقضي، ويخلفه زمن آخر كئيب؛
جلد آخر سوف يكسو العظام ذاتها؛
عيون أخرى سوف تشهد الربيع.

لا أحد من أولئك الذين حاولوا تقييد الوقت-
أولئك الذين تاجروا بالدخان،
البيروقراطيين، رجال الأعمال، العابرين-لا أحد منهم
سيمكنه مواصلة السير مضطرباً في حباله.

الآلهة القساة لابسو النظارات سوف يزولون،
أكلة اللحوم غزيرو الشعر مع كتبهم،
والبراغيث الصغيرة الخضراء وطيور الPitpit

وحينما يعاد غسل الأرض من جديد،
عيون جديدة سوف تولد في المياه،

وسيمرع القمح بلا دموع.

ترجمة: طاهر رياض

أراكو Arauco: بلدة حدودية كثيرة الأمطار والعواصف، الى الجنوب من تيموكو، نشأ فيها نيرودا.

أنغول Angol: عاصمة مقاطعة ماليكو Malleco، إلى الجنوب من تشيلان.

ايسلانغرا Isla Negra: منذ العام ١٩٣٩ امضى نيرودا معظم وقته في ايسلانغرا، وسط تشيلي، في منزله المطل على البحر. وفي عام ١٩٥٥ انتقل مع ماتيلدا للإقامة في منزل بناه هناك.

تشيلان Chillan: مسقط رأس ماتيلدا، منطقة كثيرة الجبال والبراكين، تقع إلى الجنوب من سانتياغو.

فرونتيرا Frontera: منطقة حدودية بركانية مغطاة بالثلوج، قضى فيها نيرودا شطراً من طفولته.

تيموكو Temuco: مدينة أسسها في نهايات القرن التاسع عشر الهنود الأروكانيون.

طالطالة Taltal: ميناء صغير.

لوتا Lota: مقاطعة ومدينة تبعد خمسين ميلاً عن تشيلان، على شاطئ الباسيفيك. تشتهر بوفرة أعشابها البرية وبمناجم الفحم.

كويتراتو Quitratue: اسم يطلق على منطقة صغيرة اشتهرت ببراكينها، وهي الآن مغطاة بالجليد.

كونيكمالي Quinchimali: بلدة صغيرة على أطراف تشيلان، إلى الجنوب من سانتياغو، تشتهر، مثل تشيلان، بتربتها الصلصالية وبفخارها الأسود.

كوتابوس Cotapos: موسيقار تشيلي، اشتهر بحكاياته ونوادره، كان صديقاً لنيرودا في سانتياغو.